نحن واللغة العربية (١)

اللغة العربية من أيام الجاهلية الى أيام النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر للميلاد

للأستاذ مصطفى الشهابي

إذا أمعنا النظر في لغتنا العربية نجد أنها أعظم فرع في دوحة اللغات السامية ، وهي السريانية والعبرانية والفينيقية والآشورية والبابلية والحبشية ، أي لغات الشعوب التي كان مهدها الأصلي جزيرة العرب ، ثم هاجرت منها لأسباب شتى ، الى الأصقاع المجاورة ، في موجات بشرية واغلة في القدم.

وإذا قلبنا الطرف في تاريخ هذه اللغة نجد أنها كانت قبل الاسلام لغة العدنانيين من العرب ، أي لغة الحجاز ونجد وشمالي الجزيرة ، وأنها كانت لهجات تختلف قليلاً باختلاف القبائل ، وان أعلى اللهجات كعباً إنما كانت لغة قريش التي نزل القرآن الكريم بها فخلدها على كرّ الأيام والسنين .

ولقد أخطأ من ظنّ أن اللغة العربية كانت قبل الاسلام لغة ضيقة لا تتسع عن كثير من المعاني ولا تعبر عن خوالج النفس البشرية . ولئن ضاع تاريخ تطور العربية العدنانية المُضرية في طيات الحقب الخوالي ، قبل أن يكون للعرب تاريخ معروف مدوّن ، فإنا لا مرية فيه أنها كانت قبل الاسلام من أنضج الألسنة وأدقها تعبيراً وأغناها بالمترادفات . وقد ترك لنا حرب الجاهلية ثروة من أجود الأشعار وأرقها وأخلصها وأيسرها وأبعدها

(١) اقتطف هذه سلسلة أحاديث كان قد ألقاها معالي العالم الجليل الامير مصطفى الشهابي في ناديه دمشق ولم يكتبها في الصحف ، وبحوث الامير الطبية والادبية لا تفقد جدتها مهما يطل عليها الزمن . ويسرنا ان يعود معاليه بعد الفراغ طويل الى نشر ما كان يتحف به قراء المقتطف من مقالاته النفيسة .

من القول والاستجداء . وخلفوا لنا جملة صالحة من الحكم والأمثال . ومن اطلع على شيء من هذه الأشياء والحكم والأمثال ، في أمهات كتب الأدب والمعلقات وديوان الحماسة وأمثال العرب لفضي وجمهرة الأمثال للعسكري وجد فيها الأدلة الناصعة على صحة ما ذكرته .

وجاء الإسلام فاذا بالقرآن الكريم يصبح أم مرجع لهذه اللغة وأسلع ضابط لها وانتشر الاسلام فاذا بأفق العربية يمتد معه . وبينما كنت تراها في الجاهلية منكفئة في منابتها الأصلية لا تتعدى هربة (جزيرة العرب) وبوادي الشام والعراق وديار ربيعة (الجزيرة) ، اذا بها تسبح في الخلافات العربية الاسلامية لغة الدين والعلم والأدب والسياسة ، من حدود الصين شرقاً حتى بحر الظلمات (الأطلنطي) غرباً .

وفي عصر الخلفاء الراشدين جمع القرآن وضُبط ودُوِّن له أربع نسخ صحيحة . ثم في أيام الأمويين اتسعت الفتوح ، وانتشر العرب في البلاد الاسلامية المترامية ، وازداد عدد المتكلمين بالعربية من غير العرب ، وكثر بازدياد اللحن ، فاشتدت الحاجة الى ضبط قواعد اللغة فوضع أبو الأسود الدؤلي شيئاً من علم النحو ، ووضع غيره صور الحركات الثلاث الضمة والفتحة والكسرة ، ثم أحدثوا الاعجام أيام الحجاج وبعده تمييزاً لبعض الحروف من بعض بالنقط .

وفي أيام بني أمية نُقلت الدواوين من الفارسية والرومية والقبطية الى العربية ، ومُهدت السبل لتعرُّب سكان العراق والشام ومصر فتعرَّبوا دون إكراه ، وأصبحت هذه الأقطار الثلاثة من أم فروع الدوحة العربية ، وصار لعدد كل من نزلوها من الأقوام كالترك والكرد والشركس وغيرهم يتعرَّبون حيثاً وتُسمد أنسالهم عربية . أما نصارى هذه الأقطار فتعريبهم كان أمراً طبيعيًّا لأنهم كانوا إما من أصول غسانية عربية وإما من أصول مرقية أو قبطية والمهد الأصلي لكليهما جزيرة العرب فهي أمهم ومنها هاجروا في فجر التاريخ

وفي كنف الأمويين نشأ أعراق الأدب في الكوفة والبصرة ، وتألقت حلقات الأدباء والشعراء والعلماء ، ونشأ القراء والمفسِّرون والمحدثون والفقهاء واللغويون ، فأغنوا اللسان الضادي بما ضموا إليه من المصطلحات الفقهية والادارية والحربية وغيرها من الألفاظ التي تحتاج إليها الدولة في تصريف أعمالها .

أما الخطابة فقد كان شأن عظيم في عهد الأمويين لأنها كانت أكبر أداة يتحدث بها الناس الى مخدوميهم . وكان معظم الخلفاء والأمراء وقواد الجيوش من الخطباء المعروفين بفصاحة اللسان وقوة البيان . وأما الشعر فلم يكن له من المنزلة في أي دولة من الدول العربية ما كان له عند أيام بني أمية ، لأن هؤلاء كانوا من أشد الناس عصبية للعربية ، ومن أحرصهم على إحيائها وعلى نشر آدابها . وكان نبيه الأدباء والشعراء والخطباء فلا غرابة أن ينشأ في ظلهم شعراء عظماء في شعرهم بين بلاغة العصر الجاهلي وسلامة الألفاظ والتعابير القرآنية . ولا يوجد عربي قد شيئاً من آداب العربية إلا وله اطلاع على جانب من شعر الأخطل والفرزدق وجرير وجميل بن معمر صاحب بثينة وكثير ابن عبد الرحمن صاحب عزة وعمر بن أبي ربيعة المخزومي وقيس بن ذريح صاحب لبنى وقيس بن الملوح صاحب ليلى التي جنّ بها . وعندك عشرات غيرهم من فحول الشعراء في مختلف مناحي الشعر .

وفي أيام بني أمية بدأوا يكتبون التأريخ وينقلون الى العربية علوم السريان والفرس والهنود . واشتهر بذلك خالد بن يزيد حفيد معاوية . لكن جميع ما كتبوه أو نقلوه قد غيبته الأيام في طياتها ، والنهضة العلمية لم ترسخ أقدامها إلا في أيام بني العباس في تلك الأيام ولا سيما في عهد الخلائف الأول من بني العباس بلغت المدنية العربية أوجها الأعلى ، ونقلت الى لساننا زبدة علوم الأقدمين في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق والنبات والحيوان وغيرها ، فزدهى هذا اللسان بثلثات وألوف من التعابير والمصطلحات الجديدة في شتى ضروب العلم والفلسفة والأدب والإدارة والسياسة ، ولم يضق ذرعاً بما نُقل إليه من العلوم ، بل وسعها كلها ووسع ما أضافته قرائح علماء العرب والاسلام إليها ، وحفظها جميعاً ، ونقلها الى العالم الأوربي قبيل نهضته الحديثة . ولولا العرب والعربية لضاعت علوم الأقدمين ولانقطعت الصلة بينها وبين العلوم في أيام الناس هذه ، ولتأخرت النهضة الحديثة في أوربة زماناً لا يعلم مداه إلا الله .

وكان الأولون من خلفاء بني العباس كالمنصور والرشيد والمأمون من أشد الناس رغبة في العلم والأدب ، ومن أكثرهم إجلالاً للعلماء والأدباء . وكانوا يتذوقون دقائق

اللغة ومحاسن الشعر ، ويبذرون الحث من النفس في ضروب الآداب . وعكف عدد من أبنائهم على العلم والأدب ، وصنَّف بعضهم كتباً في موضوعات شتى ، وكان لبعض الأمراء والوزراء ميل إلى اكرام الأدباء والأخذ منهم وانشاء معتقاتهم كأبي دُلَف العِجْلي والفتح بن خاقان وعبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي وآل برمك والفضل بن الربيع وغيرهم كثير . فلا غرو ، والأمر على ما ذكرت ، أن تروج سوق الأدب واللغة في الكوفة والبصرة بادىء بدء ، وأن ينتقل مقرها بعدئذٍ الى بغداد عاصمة ذلك الملك الواسع الأرجاء . ولا عجب أن يرق النظم ويتحضر ويتناول موضوعات شتى من مدح ووصف وغزل وخمريات ونهتك وخلاعة ، وأن يلمع في الشعر أمثال بشار بن برد وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري ومسلم بن الوليد وأبي تمام وأبي دلامة وعشرات غيرهم وأن يظهر أئمة الكتاب والمنشئين كعبد الله بن المقفع صاحب كليلة ودمنة وكهل ابن هرون وعمرو بن مسعدة .

أما اللغة ومفرداتها فقد حفظها أئمة الرواة في ذلك العصر وأشهرهم أبو زيد الانصاري وأبو عبيدة والأصمعي ، فدوَّنوا بعض كلماتها في رسائل شتى ، ولكن الفضل في وضع أول معجم عربي يرجع الى الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي سيد أهل الأدب وأول من ضبط اللغة واستخرج علم العروض . ومعجمه يسمى كتاب العين لأنه يبدأ بحرف العين.

وفي صدر الدولة العباسية ظهر النحاة وأشهرهم سيبويه صاحب أجل كتاب في هذا العلم . ويأتي من بعده الكسائي والفرَّاء . وكان هرون الرشيد تلميذ الكسائي ، كما كان أبوه المهدي تلميذ الفقعسي في اللغة والأدب .

ولما أخذ الأتراك يتسلطون على الخلفاء في القرن الثالث للهجرة ، عمت الفوضى وكسدت سوق اللغة والأدب والشعر والترسل ، وبعد أن كان العلماء والأدباء والشعراء يتحوَّن المئات والألوف من الدنانير على نتائج قرائح أصبح زملاؤهم يشتكون من ذهاب دولة الشعر والأدب بذهاب الخلفاء والأمراء والوزراء الذين يقيمون للسلطان العلوم وزناً . ومع هذا فقد ظهر في القرنين الثالث والرابع شعراء مشهورون كابن الرومي والبحتري وأدباء وكتاب يعدون أئمة في الأدب والبيان كالجاحظ صاحب البيان والتبيين وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب وقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر ،

وأبي العباس المبرد صاحب كتاب الكامل ، وأبي علي القالي صاحب كتاب النوادر المعروف بأمالي القالي ، وأبي الفرج الأصبهاني العربي الأموي صاحب كتاب الأغاني . وظهر في الأندلس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . ومن المعروف أن هذه الكتب تعد أمهات كتب الأدب في لساننا العربي . أما في اللغة فقد ظهر المعجم المسمى الجمهرة لابن دريد صاحب المقصورة الشهيرة .

ولما استقر البويهيون في بغداد في القرن الرابع للهجرة وانقسمت البلاد الإسلامية دولاً مختلفة كالدولة الفاطمية في مصر ، والحمدانية في حلب والجزيرة ، والبويهية في العراق وفارس ، والمروانية في الأندلس الخ . نزح العلماء والأدباء عن بغداد ، وتفرقوا في أنحاء تلك الممالك ، وأصبحت مراكز العلم في مصر والشام والمغرب والأندلس والعراق العجمي وخراسان وغيرها من الأطراف . وكان آل بويه فُرساً تُرك كثير منهم فنصروا رجال العلم والأدب ، أما المروانيه والحمدانية والفاطمية فكانوا عرباً . وظهر فيهم ملوك وأمراء كان لهم عطف شديد على رجال العلم والأدب . ولهذا أصبحت ثمار العلوم والآداب في تلك الحقبة وكثرت دور الكتب ، ودُوِّنت معاجم اللغة ، واتسع خيال الشعراء ، وظهرت الروايات والقصص والمعلقات .

ومن أشهر شعرائها أبو الطيب المتنبي وأبو فراس الحمداني والسري الرفاء والشريف الرضي وأبو العلاء المعري وغيرهم كثير . وكان عند البويهيين من الوزراء الكتاب ابن العميد والصاحب بن عباد . ومن ذاع صيتهم أبو منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر وبديع الزمان الهمذاني صاحب الرسائل المشهورة وأبو علي التنوخي صاحب كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة . وتكامل نشوء المعاجم اللغوية في القرنين الرابع والخامس ، ومن أشهرها الصحاح للجوهري والتهذيب للأزهري والمُجْمَل لابن فارس والمخصص لابن سيده وهو أجلها (رُتبت كلماته على حسب معانيها) .

ولم تدم هذه النهضة الأدبية واللغوية والعلمية كثيراً لأن العرب والمعربين الذين هم قوام هذه النهضة وحماتها قد تغلبت عليهم أمم عجمية لا تدرك معنى العلم ولا تقيم للعلماء وزناً . ففي العراق لم ينتصف القرن الخامس للهجرة حتى دخل السلاجقة بغداد وهم أتراك دانوا بالإسلام ليسهل عليهم فتح الممالك الإسلامية . وفي أوائل القرن السابع اكتسح جنكيز خان المغولي المشهور الديار الإسلامية فخرب مدنها وأحرق دور كتبها وقتل فيما قتل الشيوخ والنساء والأطفال . ثم ظهر من نسله سفاح آخر إسمه هولاكو دخل بغداد في أواسط القرن السابع فخربها ونهب دورها وقتل علماءها وألقى كتبها في دجلة حتى صار

ماؤها يجري أسود من مداد آلاف الكتب المنقوعة في الماء . وكان ثالثة الأثافي تيمورلنك الذي فاق أسلافه بضروب الوحشية والهمجية . وكان لهؤلاء المغول تأثير سيء كبير في اللغة العربية وآدابها مدة ثلاثة قرون . ولولا الحيوية العظيمة التي كمنت فيها لتقلص ظلها من البلاد التي دنستها أقدام المغول .

ومن حسن حظ العربية أن قيض الله لها الدولة الفاطمية فالدولة الأيوبية في مصر والشام . والأيوبيون أكرادٌ تعرَّبوا ونبغ منهم علماء وأدباء لعلَّ أشهرهم المؤرخ الشهير أبو الفداء . واجتمع العلماء واللغويون والشعراء حول رجال هاتين الدولتين كما اجتمعوا حول بعض من ناصروا العلم من وزراء الدولة السلجوقية . وهكذا ظهر من علماء اللغة جار الله الزمخشري صاحب معجم أساس البلاغة وكتاب المفصل في النحو ، وابن الحاجب صاحب كتاب الكافية في النحو والشافية في الصرف كما ظهر من بعد في القرن السابع ابن منظور صاحب معجم لسان العرب أعظم معاجمنا وأوثقها ، وفي القرن الثامن الفيروزابادي صاحب المعجم المشهور المسمى بالقاموس المحيط .

أما عهد العثمانيين ، منذ أن احتلوا ديار العرب في القرن العاشر للهجرة الى خروجهم منها عقب الحرب الكبرى الماضية ، فقد كان في الجملة أسوأ أيام مرت على اللغة العربية وآدابها . ذلك أن الممالك من أتراك وشراكسة كانوا قبل الأتراك العثمانيين يسكنون مصر والشام ويتعلمون العربية . وكانت هذه اللغة في أيامهم هي لغة الدولة الرسمية . أما العثمانيون فقد اتخذوا اسطنبول حاضرة لهم وجعلوا التركية لغة الحكومة الرسمية حتى في البلاد العربية . وكان ذلك ضربة أصابت لغة القرآن في الصميم . ولم تشف لغتنا الضادية المباركة من تأثير هذه الضربة إلا بعد أن قامت الدولة العلوية في مصر على يد محمد علي ، وبعد أن تغلبت جيوش الخلفاء والثورة العربية على الدولة العثمانية في الحرب العامية ، فأخرجتها من الشام والعراق واليمن والحجاز . وكان نتيجة ذلك النصر قيام دول عربية في تلك الأقطار العربية أعترف لها دوليًّا بكيان قوي وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في دوائر حكوماتها وفي مدارس تلك الحكومات . وبينما كنا أيام الدولة العثمانية ندرس لغتنا الضادية في الشام باللسان التركي على معلمين أتراك معرفتهم بالعربية كمعرفتهم بالصينية ، صار من أتوا بعدنا من الشاميين يدرسونها على مثل الجندي والمبارك والغلاييني والبزم والنساف ومن هم في طبقة مقاربة من الأساتذة المعروفين . ولو وحنا نقايس بين هؤلاء وأولئك لصح الاستشهاد بالبيت المشهور .

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا